



الأصول التاريخية لحركة الحشاشين*

الدكتور/ محمد عثمان الخشت

أستاذ الدين المقارن والمذاهب الحديثة والمعاصرة

كلية الآداب - جامعة القاهرة

ترجع الأصول الأولى لحركة الحشاشين إلى التيار الشيعي في الإسلام - ذلك التيار الذي انقسم إلى فرقتين كبيرتين عند موت الإمام جعفر الصادق الإمام السادس سنة ١٤٨ هـ، وقد كان الإمام جعفر قد عهد بالإمامة إلى ابنه الأكبر إسماعيل ولكن مات إسماعيل أثناء حياة أبيه جعفر الصادق، وهنا حدث الخلاف بين الشيعة : هل تنتقل الإمامة إلى محمد بن إسماعيل أم من حق الإمام جعفر الصادق أن ينقلها إلى ابن آخر من أبنائه هو موسى الكاظم ؟

سأقت مجموعة بقيادة ميمون القداح الإمامة إلى محمد بن إسماعيل وقالت ليس من حق الإمام جعفر نقل الإمامة إلى ولد آخر من أولاده ، في حين صرف الإمام جعفر الإمامة بالفعل إلى ابنه الآخر موسى الكاظم . فكان ذلك هو عقد ميلاد فرقتي الشيعة الرئيسيتين : الإسماعيلية ، والاثنا عشرية. فالاثني عشرية هي التي أيدت إمامة موسى الكاظم ، أما الإسماعيلية بقيادة ميمون القداح فقد سأقت الإمامة إلى محمد بن إسماعيل ^(١) ولما مات ميمون حوالي ١٩٨ هـ ، خلفه ابنه عبد الله في الدعوة إلى أبناء إسماعيل . وكانت الحركة بعد موت إسماعيل قد دخلت في (دور الستر) ، وأخذت تنمو وتتوطد دعائهما الفكرية ، حيث عمل رجالها على تأليف المصنفات التي تنظر لدعوتهم وتدعوا إليها ، وقد ظهرت في هذه الفترة الغامضة التي امتدت من موت إسماعيل حتى ظهور عبيد الله مؤسس الدولة الفاطمية ، مجموعة رسائل إخوان الصفا التي أشرف على تأليفها الإمام أحمد الأئمة المستورين.

وطوال فترة الستر التي تعاقب فيها ثلاثة من الأئمة المستورين، لم تحقق الدعوة نجاحاً كبيراً إلا بظهور عبيد الله المهدي، الذي يعتبر ظهوره أقصى ما وصلت إليه الدعوة الإسماعيلية من نجاح لا يقاس به إلا نجاح الدعوة الأولى في تصدع الخلافة الأموية . ويرجع قسط غير قليل من هذا النجاح إلى الجهود الشخصية التي بذلها كبير الدعاة أو عبد الله الحسين الشيعي من أهل صنعاء اليمن . وهو الذي أعلن نفسه - في نهاية القرن الثالث الهجري - مبشراً بظهور المهدي ، وتمكن من غرس بذور الثورة بين قبائل البربر في شمال إفريقيا ، وخاصة قبيلة كتامة . وترجع بداية معرفته بأفراد هذه القبيلة إلى موسم الحج في مكة، وكانت إفريقية في ذلك الوقت تحت حكم الأغلبية.

ثم انتقل أبو عبد الله إلى تَارَزُوت قرب بجاية في المغرب الأوسط في إقليم القبائل الحالي، واتخذها حصناً ومعسكراً يعد فيه القوة العسكرية اللازمة للقضاء على الدولة الأغلبية في إفريقية وإقامة دولة الفاطمية مكانها. وعندما سمع سعيد بهذا النجاح الباهر الذي حققه كبير دعائه في تلك المنطقة البعيدة ، عزم على أن يترك المقر الأصلي للإسماعيلية في سلمية ، وأن يسير متنكباً في ثياب تاجر إلى الشمال الغربي من إفريقية.

(١) ينفي معارضو الإسماعيلية تسلسل أى من الإئمة المستورين بين الإمام إسماعيل ويقولون : إنه لم يعقب ولداً وأن محمداً لم يكن ابنه وإنما هو (عبد الله) بن ميمون القداح الذي نسب ميمون إلى إسماعيل وسماه محمداً. وهما ادعاءات أخرى متعددة غير ذلك. والواقع أن حسم هذه المسألة من الصعوبة بمكان إن لم يكن مستحيلاً لأن دخول الحركة في تلك الفترة الغامضة المعروفة بـ [دور الستر] يجعل كل الاحتمالات ممكنة لا سيما وأن المؤرخين قد اختلفوا اختلافاً واسع النطاق حول هذه المسألة : ولكل منهم أدلتهم وبراهينه .



وعند وصوله أمر زيادة الله الأعلى بالقبض عليه وسجنه في سجنه. ولكن أبا عبد الله الشيعي نجى سعيدياً ، واستطاع في سنة (٢٩٧ هـ = ٩٠٩ م) أن يحطم دولة الأغالبة التي ظلت تحكم زهاء قرن وأن يطرد آخر سلالتها زيادة الله من البلاد. وقد كان الأغالبة آخر من يمثل الإسلام السني في شمالي إفريقيا . ولقد أعلن سعيد نفسه حاكماً على تلك البلاد واتخذت لقب الإمام عبيد الله المهدي وقبله الناس على أساس أنه من سلالة فاطمة عن طريق الحسين ثم إسماعيل .

نسب الفاطميين :

ويشار غالباً إلى الأسرة الحاكمة التي أسسها سعيد باسم العبيدية، لا سيما من أولئك الذين لا يؤمنون بصحة نسبه. فمن المعروف أن المؤرخين يختلفون حول صحة تسلسل الفاطميين من فاطمة، ويوجد في كتب التاريخ ما لا يقل عن ثمان سلاسل نسب مختلفة يلحقه بها أنصاره وخصومه . ومما هو جدير بالذكر أن الخلاف على صحة نسب الفاطميين لم يَقم إلا في سنة (٤٠٢ هـ = ١٠١١ م) عندما أصدر الخليفة العباسي القادر منشوراً غريباً أمضاه كثير من علماء أهل السنة وأعلن فيه ديسان الملحد . ومن بين المؤرخين الذين يتشككون في صحة نسب الإمام سعيد أو ينكرونها : ابن عذارى ، وابن تغرى بردى ، وابن خلكان ، والسيوطي . أما الذين يؤيدون صحة نسبه فكثيرون ، منهم : ابن الأثير ، وابن خلدون ، والمقرئ .

عبيد الله كحاكم قوى:

مهما يكن من أمر فقد أقام عبيد الله نفسه نفسه أولاً في رقادة مقر الأغالبة وهي ضاحية من ضواحي القيروان. وقد أثبت أنه من أقوى الحكام ، فلم تمر سنتان على تمتعه بالسلطة حتى قتل كبير دعائه الحسين الشيعي ، ثم وجه جيوشه لفتح سائر بلاد المغرب، على أمل الخروج من المجال الضيق الذي وجد نفسه فيه ، وقد ساعده على ذلك ما كان تحت يديه من قبائل بربرية ضخمة متطلعة إلى الغازات والمغانم وفرض السلطان ، فإلى شرقي منازل كتامة - وكانت جذماً ضخماً يضم عدداً كبيراً من القبائل - كانت هناك قبائل صهاجة المغرب الأوسط ، وكانت أعدادهم أكبر من أعداد كتامة، فاصطنع عبيد الله المهدي واحداً من أكبر زعمائهم وهو مصالة بن حبوس ، وسلطه على بقية المغرب الأوسط، وكانت تسكنه قبائل زناتية أكبرها مغراوة وبنو يفرن، فحمل الصنهاجيون عليها ودفعوها إلى الغرب، واستعانت القبائل الزناتية في محتنها ببنى أمية الأندلسيين ، ووصل مصالة بن حبوس تابع الفاطميين بمن معه من الصنهاجين إلى المغرب الأوسط، وغلبوا الأدارسة ودخلوا فاس، وولى مصالة عليها رجلاً من أنصاره وهو موسى بن أبي الغافية . وتقدمت أعداد الأمويين الأندلسيين لعون الأدارسة وبنى خزر الزناتيين، واشتعل المغرب كله ناراً نتيجة لتلك التوسعات الفاطمية .

من جهة أخرى ، فإن في سنة (٣٠٢ هـ = ٩١٤ م) استولت جيوش المهدي على الإسكندرية ، وبعد ذلك بعامين اكتسح كل الدلتا . ثم أرسل من قبيلة كتامة حاكماً جديداً إلى صقلية ، وكون علاقات صداقة مع الثائر ابن حفصون في الأندلس. وقد شعرت جزائر مالطة وسردينية وقروسيقة وجزائر البليار وغيرها من الجزائر بقوة أسطوله الذي ورثه عن الأغالبة . وفي حوالي (٣٠٩ هـ = ٩٢٠ م) اتخذ مقامه في غاصمته الجديدة "المهدية" التي أسسها على ساحل تونس على بعد ستة عشر ميلاً من الجنوب الشرقي للقيروان وأطلق عليها اسمه .

وخلال تلك الفترة أقامت الدولة الجديدة تنظيمًا واسعاً للدعوة الشيعية الإسماعيلية ، فلم تجد دعوتهم صدى إيجابياً ؛ حيث نفر منهم أهل إفريقية نفوراً شديداً بسبب تمسكهم بالمذهب السني المالكي يتزعمهم في ذلك فقاؤهم . ومنذ البداية اتضح لعبيد الله المهدي أن إفريقية لن تكون أبداً مهداً وثيراً لدولته الفاطمية الإسماعيلية ، وبدأت في أيامه المعركة الطويلة بين السنية المالكية والشيعية الإسماعيلية على أرض إفريقية ، وهي معركة طويلة وعنيفة، استمر المغرب يعاني منها طوال الفترة الفاطمية فيه .

خلفاء عبيد الله:

وقد اتبع أحلاف عبيد الله سياسة التوسع التي بدأها هو . فأما ابنه أبو القاسم محمد القائم المتوفي سنة (٣٣٤ هـ = ٩٤٦ م) فإنه أرسل أسطولاً يغزو السواحل الجنوبية لفرنسا، واستولى على جنوة ، وسار على طول ساحل قلورية يغزو ويحمل معه الأسرى



والغنائم ، ولكن هذه الحملات مع ذلك لم تؤد إلى غزو دائم. وبعد أن تغلب الفاطميون في أواخر خلافة ثالثهم أبي طاهر إسماعيل المنصور الذي حكم من وفاة القائم حتى سنة (٣٤١هـ = ٩٤٦م) على ثورة الخارجى أبي يزيد مخلد بن كيداد التي كادت تؤدى بدولتهم، بعد ذلك اتجهوا بأنظارهم إلى مصر، وقد شجعهم على ذلك ضعف الدولة الإخشيدية من ناحية ، والمتاعب والأزمات والتوترات التي كانت تواجههم في دول المغرب من ناحية أخرى.

ولكن قبل أن يركزوا جهودهم في السيطرة على مصر، وفي عهد الخليفة أبي عميم معد المعز ، استطاع الأسطول الفاطمي أن يغزو سواحل الأندلس التي كان خليفته آنذ الناصر العظيم . وبعد ذلك بفترة وجيزة تقدم الجيش الفاطمي ناحية الغرب حتى وصل إلى المحيط الأطلنطي الذي أرسل قائد الجيوش بعض أسماكه الحية في قدور للخليفة .

فتح مصر :

وبعد ذلك ركز الخليفة المعز لدين الله جهوده في محاولة السيطرة على مصر حتى تم له ذلك على يد قائده جوهر الصقلي. وكان جوهر الصقلي هذا ، ويلقب أيضاً الرومي، مسيحي النشأة ولد في مقاطعة بيزنطية لعلها صقلية، وبيع بعد ذلك في القيروان. وفي الحال بعد أن دخل جوهر العاصمة "الفسطاط" منتصراً في سنة ٣٨٥هـ ابتداءً بوضع أساس المدينة العظيمة "القاهرة" التي سُميت كذلك نسبة إلى الكوكب السيار "قاهر الفلك" أى المريخ الذى كان إذ ذاك في صعود . وقد أصبحت القاهرة عاصمة الدولة الفاطمية سنة (٣٦٢هـ = ٩٧٣م)، وبعد تأسيس القاهرة أسس جوهر الصقلي الجامع "الأزهر" نسبة إلى الزهراء أحد ألقاب السيدة فاطمة بنت النبي ﷺ . وبذلك أصبح جوهر الصقلي - بعد أبي عبد الله الحسين الشيعي - المؤسس الثاني للإمبراطورية الفاطمية التي صارت الآن تضم كل شمالى إفريقية.

وعندما رأى الخليفة المعز لدين الله أقدام جيوشه بقيادة جوهر تتوطد في مصر عزم على نقل مقر خلافته إلى القاهرة . وقبل أن يغادر القيروان استخلف مكانه على المغرب بكلين بن زيرى بن مناد الصنهاجى أكبر زعماء صنهاجة المغرب الأوسط. وقد بادر جوهر منذ دخوله مصر بإرسال أحد كبار قواده واسم جعفر بن فلاح ، إلى بلاد الشام ، وقد وصل ذلك القائد في سنة (٣٥٩هـ = ٩٦٩م) إلى دمشق واحتلها احتلالاً مؤقتاً. أما غربى شبه الجزيرة العربية فقد ورثه الفاطميون عن الأخاشدة الذين كانوا يتولون أمر حراسة مكة والمدينة. وفي تلك الأثناء برز أمام الفاطميين عدو لدود هم القرامطة الذين كانوا يسيطرون على إقليم الإحساء وجزيرة البحرين، وقد كانت علاقاتهم مع الفاطميين في أول أمرهم علاقات صداقة، فلما أصبح الفاطميون خلفاء مصر انقلب عليهم القرامطة بسبب التصارع على مناطق النفوذ وتعارض المطامح.

عهد أبي منصور نزار العزيز بالله:

ولم يطل عمر المعز لدين الله في مصر فقد توفي في سنة (٣٦٥هـ = ٩٧٥م) ، وكانت فترة حكمه لمصر سنتين وتسعة شهور هجرية ، أثبت فيها أنه من أقدر الخلفاء الفاطميين الذين حكموا مصر إن لم يكن أقدرهم على الإطلاق. وتولى الحكم بعده أبو منصور نزار العزيز الذى وصلت الدولة الفاطمية في عهده إلى آوجها ؛ فكان اسم الخليفة يذكر في خطب الجمعة في جميع المساجد من المحيط الأطلنطي إلى البحر الأحمر واليمن ومكة ودمشق ، بل في الموصل ذات مرة . ويمكن القول إن حكمه الاسمي - على الأقل - كان يمتد فوق هذه المساحة . وقد وصلت الخلافة المصرية في عهده إلى حد أنها أصبحت المنافس الخطير الأول للخلافة العباسية في بغداد . وذهب به التفكير إلى حد أنه أنشأ مبنى ضخماً في القاهرة كلفه ألفي ألف دينار ليأوى فيه منافسيه العباسيين الذين كان يأمل في القبض عليهم بعد الاستيلاء على بغداد . ولقد حذا حذو سابقيه فألقى نظرة طمع على بلاد الأندلس البعيدة ولكنه لم يستطع ضمها .

ويتميز عهد العزيز بالاهتمام الشديد ببناء كثير من المساجد والقصور والترع والجسور ، كما لاقى المسيحيون في ظل حكمه قسطاً من التسامح لم يظفروا بمثله من قبل، وذلك بتأثير وزيره المسيحي عيسى بن نسطور وزوجته أم ولده الحاكم التي كانت أختاً لبطريقين ملكانيين.



ورغم ازدهار الخلافة الفاطمية في عصره إلا أن أحد أسباب تدهورها فيما بعد كان هو المسئول عنه؛ ذلك لأنه كان أول خليفة فاطمة ابتداءً يتبع العادة العباسية التي كانت خطرة على سياسة الدولة، تلك العادة المتمثلة في استيراد الجند المرتزقة من الترك والسودان . وكان عدم خضوع أولئك الجند ومشاجرتهم المستمرة بعضهم مع بعض أو مع الحرس البربري من أكبر الأسباب التي أدت إلى سقوط الدولة النهائي فيما بعد. وكان الجند الشراكسة والترك ومن معهم من العبيد هم . الذين اغتصبوا في آخر الأمر السلطة التامة وأسسوا لهم دولة مستقلة .

عصر الأساطير والتنافس : الحاكم بأمر الله:

وبعد وفاة العزيز سنة (٣٨٦هـ = ٩٩٦م)، خلفه ابنه الحاكم بأمر الله وعمره إحدى عشرة سنة . وتشتمل فترة حكمه على متناقضات عجيبة : يأمر بالشئ ثم يعاقب عليه ، ويعلى مرتبة الوزير ثم يقتله ، ويبني المدارس وينصب فيها الفقهاء ثم يهدمها ويقتل فقهاءها. وتباين أقوال المقيمين له تبايناً عظيماً ، فمنهم من يتحدث عنه كعبقري ، بل وكإله ! ومنهم من يعتبره مختل العقل مستهتراً سفاكاً للدماء.

وخلاصة الانطباع الذي يستطيع المرء أن يكونه بعد استقراء فترة حكمه والتأمل في أحداثها تتمثل في أن الحاكم كان لغز عصره، وتعد شخصيته مثلاً نموذجاً للخلفاء والغموض والتناقض ، ولم تكن مظاهر الغموض والتناقض التي تنتاب هذه الشخصية الغريبة في كثير من المواطن ، لتحجب مظاهر القوة المادية والمعنوية التي تتمتع بها في أحيان كثيرة . بيد أن الخلفاء والغموض يغمر هذه المظاهر جميعاً ، سواء في فترات قوتها أو ضعفها . وكان هذا الخفاء والغموض المروع يصب الحاكم في حياته الخاصة وفي تصرفاته العامة ، في أقواله وفي أفعاله . وأى خفاء وغموض أشد من ذلك الذي تنفته حولها ، شخصية ترتفع في سماء التفكير حتى لترغم السمو فوق البشر وتقيم في دعوى الألوهية ، ومع ذلك تنحط في كثير من نزعاتها وتصرفاتها إلى نوع من الشذوذ بل الجنون الغامض !! وقد انتهت فترة حكمه باختفائه في إحدى الليالي سنة (٤١١هـ = ١٠٢١م)، وتذكر بعض الروايات أنه وجد مقتولاً فوق سفح المقطم ، ويقال : إن رجلاً اغتاله غيره لله وللإسلام بعد ادعائه للإلوهية وتنكيله بمصر وأهلها . لكن بعض المؤرخين يذكرون أنه اختفي نتيجة لمؤامرة دبرتها أخته ست الملوك التي أقمها الحاكم في عرضها ، فدست له رجلين اغتالاه وأخفيا أثره . وأعلن أحد دعائه ويدعى حمزة أنه " احتجب وسيعود لنشر الإيمان بعد الغيبة " !!

الظاهر لإعزاز دين الله:

بعد رحيل الحاكم بأمر الله تولى الخلافة ابنه الظاهر لإعزاز دين الله سنة (٤١١هـ) بعهد من أبيه الحاكم ، وكان في السادسة عشرة من عمره ، وكانت عمته " ست النصر " أخت الحاكم هي القائمة بأمر الدولة لصغر سنه ، واستمرت إلى أن توفيت سنة (٤١٥هـ) . وقد اضطربت أحوال الديار المصرية والبلاد الشامية في عصره ، وتغلب حسان بن مفرح الطائي شيخ عربان جبل نابلس على أكثر الشام . ودامت دولة الظاهر قرابة ستة عشر عاماً . وكان محباً للعدل ، فيه لين وسكون مع ميل إلى اللهو ؛ مما أعطى الفرصة لوزرائه أن تكون السلطة الحقيقية بأيديهم . وقد تمكن من إنشاء علاقات ودية مع قسطنطين الثامن ، واتفق معه على أن يذكر في المساجد الواقعة في ممتلكات الإمبراطور وأن يصلح مسجد القسطنطينية في نظير أن يسمح الظاهر بإعادة بناء كنيسة القيامة أو القبر المقدس.

عهد المستنصر:

وبوفاة الظاهر سنة (٤٢٧هـ = ١٠٣٦م) اعتلى به المستنصر العرش، وكان في الحادية عشرة من عمره، ويعتبر حكمه البالغ زهاء ستين سنة أطول حكم حكمه خليفة في التاريخ الإسلامي ، وهو الخليفة الفاطمي الذي قابل فيما بعد الحسن الصباح مؤسس حركة الحشاشين عند زيارته لمصر وأخذ عليه العهد والولاء له وكلفه بالدعاية الإسماعيلية في بلاد فارس، وعندما سأله الحسن : من إمامي بعدك؟ قال له المستنصر : ابني نزار .. إلى آخر تلك التفاصيل التي سنذكرها في حينها عند الحديث عن نشأة حركة الحشاشين وتطورها .



وفي الشطر الأول من حكم المستنصر كان يقوم بأمره وزير أبيه أبو القاسم على بن أحمد الجرجاني . ثم تغلبت أمه على الدولة ، وهى أمة سودانية اشترت من يهودي ، فكانت تتمتع هي ومن باعها بأعظم النفوذ ، وكانت تصطنع الوزراء وتوليهم ، ومن استوحشت منه أو عزت بقتله ، فيقتل. وفي عهده بدأت الممتلكات الفاطمية تنقلص ، وبعد سنة ١٠٤٣م ابتدأت الممتلكات الفاطمية التي كانت دائماً ضعيفة الارتباط بمصر تنفصل عن الدولة بسرعة ، وكانت فلسطين دائمة الثورات. ثم ظهرت قوة كبيرة في الشرق ، تلك هي قوة التركمان السلاجقة الذين أخذوا يتطلعون إلى آسيا الغربية وقتئذ . وفي نفس الوقت كانت المقاطعات الإفريقية التابعة للفاطميين تنفصل وتمتنع عن دفع الجزية ، وتعلن استقلالها أو تعترف بطاعتها للعباسيين.

أما القبائل العربية المشاغبة من بني هلال وسليم ، التي كانت في الأصل من نجد وأصبحت آنذ في الصعيد ، فقد خُضت في سنة ١٠٥٢م على أن تتحرك إلى الغرب وتغزو لعدة سنوات متوالية طرابلس وتونس. أما صقلية التي كانت خاضعة للأغالبة ثم اعترفت بعد القضاء عليهم بنفوذ الفاطميين وخضعت لهم ، فإنها في سنة ١٠٧١م قد أخضعها النرمنديون الذين لم يكتفوا بالاستيلاء عليها بل اكتسحوا بعض الأجزاء من إفريقية نفسها.

وبعد هذا التقلص السريع لنفوذ الفاطميين خارج مصر ، لم يبق مخلصاً لقضية الشيعة إلا بلاد العرب وحركة ألموت (= حركة الحشاشين) في فارس بقيادة حسن الصباح. ولم يلمع في ذلك الأفق المظلم إلى شعاع واحد من الضوء ، ذلك هو النجاح المؤقت الذي أصابه في بغداد القائد التركي والمعتصب المسمى البساسيري ، الذي أجبر الخليفة العباسي القائم على التنازل عن حقوقه في الخلافة لمنافسه الفاطمي المستنصر . وكان يذكر اسم المستنصر في المساجد الواقعة في منطقة نفوذه في بغداد مدة أربعين جمعة متتابعة . ولنا وقفة أخرى مع هذه الحادثة لنبين كيف استطاع القائد السلجوقي طغرل أن يعيد الأمور إلى نصابها .

الحالة الداخلية لمصر في عهد الفاطميين :

هذا عن الحالة الخارجية للدولة الفاطمية ، أما الحالة الداخلية في مصر نفسها ؛ فقد كانت المتاعب والقلق مستمرة بسبب النزاع بين فرق الأتراك والمغاربة والسودانيين مما أدى إلى شل سلطة الحكومة. ثم كانت سبع سنوات عجاف ، فأرهقت الموارد الاقتصادية في البلاد . وفي سنة ١٠٧٢م أرسل الخليفة المستنصر المتردد القلق يستدعى بداراً الجمالي الأرمني - الذي كان من الموالى السابقين ، وكان في ذلك الوقت الحاكم العسكري لعكا - ليكون وزيراً وقائداً أعلى . وتولى أمير الجيوش الجديد الإمرة بما أوتى من قوة حتى أنه حول تلك الفوضى الظاهرة إلى نظام ، ومنح الدولة الفاطمية أمداً جديداً للحياة . ولكن أصبح الخليفة الفاطمي نفسه كالجور عليه بسبب ما كان يتمتع به بدر من قوة ونفوذ وسيطرة ، حتى أنه لم يستطع أن يفعل شيئاً عندما اضطهد الوزير الداعية حسن الصباح عند وجوده في مصر.

ولكن هذا التجديد والإحياء لم يدم طويلاً ، ولم تفلح جهود بدر ولا جهود ابنه وخلفه الملك الأفضل في إيقاف تيار التدهور الآخذ في الأزداد ، وكان الأفضل يمارس سلطة كاملة بعد وفاة أبيه. ولما مات المستنصر سنة (٤٨٧هـ = ١٠٩٤م) وضع الملك الأفضل على العرض أصغر أبناء الخليفة وسماه المستعلى بدلاً من نزار الابن الأكبر الذي كان له الحق الشرعي في الخلافة . ومن هنا انقسمت الاسماعيلية الفاطمية قسمان : الإسماعيلية المسعلية ، والإسماعيلية النزارية التي تنتمي إليها حركات ألموت .

وعند موت المستعلى نادى الأفضل بطفل للخليفة لا يتجاوز الخامسة من عمره ، ومنحه - كخليفة - ذلك اللقب الضخم " الأمر بأحكام الله " الذي تمكن فدائي ألموت من اغتياله. ثم تولى الحافظ بعد الحكم من سنة ١١٣٠ إلى ١١٤٩م وكان سلطانه لا يعدو قصر الخلافة. أما ابنه وخلفه الظافر الذي حكم من ١١٤٩ إلى ١١٥٤م فإنه كان في ذلك الوقت شاباً مرحاً ، وانتقلت كل السلطة إلى يد الوزير الكردي ابن السلار الذي كان يلقب بالملك العادل. وتدل المذكرات التي تركها المؤرخ أسامة الذي عاش فيما بين سنتي ١١٤٤ و ١١٥٤م في البلاط الفاطمي - على أن المؤامرات والخصومات والتحاسد الذي كان قائماً لم يكن له نظير في أى بلاط آخر .



وليس من شك أن مقتل ابن السلار سنة (٥٤٨هـ = ١١٥٣م) على يد حفيد زوجته نصر بن عباس الذى شجعه الخليفة فيما بعد على أن يقتل أباه عباس بن السلار الذى خلفه في الوزارة ، وكذلك مقتل الظافر المصحب بالغموض على يد ذلك المتآمر الصغير - كل ذلك يعرض أمامنا صفحة سوداء في تاريخ مصر السياسى . وفي اليوم التالى لمقتل الخليفة الفاطمى الظافر نادى العباس بابنه الذى كان لا يتجاوز الرابعة من عمره خليفة أعطاه لقب الفائز ، وقد مات هذا الخليفة الطفل وهو في الحادية عشرة من عمره ، تلاه سنة (٥٥٦هـ = ١١٦٠م) ابن عم له عمره تسع سنوات وهو الخليفة العاضد الرابع عشر من خلفاء هذه الدولة التى حكمت أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان.

وكان مما يزيد في تعاسة الشعب المصرى الذى كان يعتمد في حياته وإقامة أوده على فيضان النيل - تلك المجاعات والأوبئة المتكررة التى كانت تصيب البلاد الفترة بعد الأخرى ، وكان نتيجة ذلك ازدياد الضرائب على الشعب وتعرضه للاغتصاب حتى يشبع حشع الخلفاء وجهودهم. وقد زاد الأمور تعقيداً بحج الصليبيين وهجمات أمليق ملك بيت المقدس الذى وصل إلى داخل البلاد حتى وقف سنة (٥٦٢هـ = ١١٧١م)، بجوار أبواب القاهرة نفسها .

إن كل الأمور قد وضع لها صلاح الدين حداً نهائياً بعزله لآخر خليفة فاطمى في (الحرم سنة ٥٦٧هـ = سبتمبر ١١٧١م)، وأسقط الخطبة على المنابر للخليفة الفاطمى وأقام الخطبة للخليفة العباسى على منبر الأزهر ثم بقية منابر مصر. وبذلك انتهت الدولة الفاطمية الإسماعيلية ، وبمجرد سقوطها زال كل أثر شيعى من الساحة المصرية على المستوى الفكرى والاجتماعى والدينى.

هل حققت الدعوة الإسماعيلية انتصارات عقائدية في عهد الفاطميين ؟

كان ذلك في افريقية ومصر حيث نجحت الحركة في تشييد دولتها ، وأخفقت في نشر فلسفتها وتعميم عقيدتها. ولا شك أن هذه مفارقة تلفت النظر وتدعو للتساؤل: لماذا فشلت الدعوة الإسماعيلية في تدعيم عقيدتها في تلك البلاد رغم نجاحها السياسى الذى لم تستطع أن تحققه من قبل ، لدرجة أن كل أثر فكرى من آثارها زال معها عند زوالها السياسى ؟ لماذا كانت العقيدة الإسماعيلية غائبة ، وفي لحظات الحضور كان حضورها حضوراً مغترباً ؟

لقد نجحت الحركة الإسماعيلية في تأسيس دولتها سنة ٢٩٦هـ (بافريقية (=تونس) في مجتمع قبلى صحراوي وشبه صحراوي (سجلماة - القيروان) سبق للإسلام أن " مسح الطاولة " فيه مسحاً ، مجتمع تبنى الإسلام السنن كما نشره " السلف " الفاتحون . إذن كان من الطبيعى أن يقتصر الدعاة الإسماعيليون في نشاطهم الفكرى الدينى بافريقية والمغرب على " الظاهر " وأن يركزوا على الجانب السياسى التنظيمى باستثمار سخط السكان على الولاة والاعتماد على التحالفات القبلية . وإذا وضع المرء في اعتباره أن السلطة العباسية لم تكن مباشرة على هذه المنطقة ، إذ قامت هناك دولة الأغلبية ، وهى دولة صغيرة ضعيفة - تبين له أن نجاح الدعاة الإسماعيليين كان نجاحاً سياسياً بالدرجة الأولى ، وأن الدولة الإسماعيلية التى ستجسم هذا النجاح لم تختلف في وضعيتها الاجتماعية والسياسية والقانونية عن وضعية الدول الأخرى التى شهدتها المنطقة من قبل ؛ وبالتالي فإن الأيديولوجية الإسماعيلية بدت غائبة ، وفي لحظات الحضور كان حضورها حضوراً مغترباً .

وهذا لم يحدث فقط في إفريقية (= تونس) مهد الدولة الإسماعيلية ، بل إن نفس ما حدث أيضاً في مصر قاعدة حكمها ومركز حضارتها لمدة تزيد على قرنين من الزمان .. إنها لم تستطع أن تحول انتصارها السياسى إلى انتصار عقائدى ، لا في القيروان ولا في القاهرة.

ذلك رغم انتشار مدارس الدعوة التى أنشأها عبيد الله المهدي مؤسس الدولة في عاصمته المهدية بتونس ، والتى انتقل منها حفيده المنصور إلى المنصورة بتونس أيضاً، ورغم انتشار مدارس الحكمة التى أنشأها الخلفاء الفاطميون في مصر، ولاسيما في القاهرة قاعدة خلافتهم منذ الخليفة المعز لدين الله، أي منذ سنة ٣٦٢هـ ، إلى أن سقطت دولتهم على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ وعودة الخلافة العباسية إليها - رغم انتشار هذه المدارس التى كانت ترعاها الدولة وتحرص على جعلها مراكز إشعاع فكرى وتكوين



أيديولوجي، فإن العقيدة الإسماعيلية في إفريقيا ومصر لم تستطع أن تتجاوز حلقات كبار الدعاة الذين كانت مناقشتهم في العقيدة والمذهب على المستوى الفلسفي تكاد لا تتعدى حדרان مدارس الحكمة و "دار العلوم" المخصصة لهم داخل قصر الخلافة. وهكذا ظلت الساحة الثقافية في مصر والمغرب العربي تحت النفوذ السني الضمني أو الصريح . وبمجرد سقوط الدولة الفاطمية زال كل أثر شيعي من الساحة المصرية، الاجتماعية والفكرية. أما في بلدان المغرب العربي فلقد كان الولاء للدولة الفاطمية، بعد رحيلها إلى مصر سنة ٣٦٢هـ، ولاءً سياسياً لا غير، وفي معظم الأحوال كان ولاءً اسمياً فقط. ومعلوم أن الحضور الفاطمي في المغرب العربي قد انتهى، حتى في صورته الاسمية تلك، في العقود الأولى من القرن الخامس الهجري أي قبل سقوط الدولة الفاطمية بما يقرب من قرن ونصف قرن.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير ، علي : الكامل في التاريخ ، طبعة مصر ، ١٣٠٣هـ .
- ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد : الفصل في الملل والأهواء والنحل . مكتبة خياط : بيروت [د.ت].
- ابن محمد الوليد ، علي : تاج العقائد ومعدن القوائد ، تحقيق عارف تامر . دار المشرق، بيروت ، ١٩٦٧م.
- أملي ، شيخ سيد حيدر : جامع الأسرار ومبني الأنوار ، تحقيق : هنري كوربان وعثمان يحيى . طهران ١٩٦٩م .
- البغدادي ، عبد القاهر : الفرق بين الفرق، تحقيق : محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا . القاهرة، ١٩٨٨م .
- جمال الدين، محمد السعيد : دولة الإسماعيلية في إيران ، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، ١٩٧٥م .
- حسن ، حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار إحياء التراث العربي . بيروت .
- عاشور ، سعيد عبد الفتاح : الحركة الصليبية ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦٣م.
- عنان ، محمد عبدالله : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، مكتبة الخانجي. القاهرة .
- غالب ، مصطفى : تاريخ الدعوة الإسماعيلية ، دار الأندلس . بيروت ، ١٩٧٩م.
- الغزالي، أبو حامد : فضائح الباطنية ، تحقيق : عبدالرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية . الكويت.

